الفجر

[إهداء إلى مؤلف كتاب «الله أكبر» المستشرق المجري الدكتور الحاج عبد الكريم جرمانوس]

لحسن كامل الصيرفي

اللهُ أكبرْ... اللهُ أكبرْ...!
تسبيحةُ العالَمِ المُطهَّرْ
للخالقِ المُبدعِ المُصوِّرْ

***

الكونُ قد هبَّ من كَراهُ
يستوضحُ النورَ عن رؤاهُ
كالناسكِ الشيخِ في تُقاهُ
طوَى الهوى مُذْ طوَى صِباهُ
وغابَ ماضيهِ في دُجاهُ
وأُنسِيَ الأمسَ أو سَلاهُ
فلم تَعُدْ تهفُ الشفاهُ
بغيرِ ما رجَّعَتْ صداهُ
جوانبُ الأفقِ حين كبَّرْ
تسبيحةَ العالَمِ المُطهَّرْ
اللهُ أكبرْ... اللهُ أكبرْ...

***

الفجرُ حُلْمٌ على الروابي
يهبطُ من مسرحِ السحابِ

على القبابِ ، على الرّحابِ
رسالةُ الحقّ والصّوابِ
لأخريّاتِ الدُّجى الكذّابِ
سدّتْ عليهنّ كلَّ بابِ
فاندفقَ النّورُ في الشّعابِ
كالنّبعِ ... كالسّيلِ... كالعُبابِ
فردّدَ الكونُ حين كبّرْ
لِقدرةِ الخالقِ المصوّرْ
اللهُ أكبرْ ... ! اللهُ أكبرْ ... !

***

قد هزّتِ الرّوحُ كلَّ ساكنْ
فابتسمَ الزّهرُ في الجنائنْ
وزقزقَ الطيرُ في المحاضنْ
وأعلنَ الدّيكُ للدّواجنْ
بشارةَ الصّبحِ وهو آمنْ
وخفّ في بُكرةِ الكوائنْ
من القُرى الرُّسْلُ للمدائنْ
لمّا علا الصّوتُ في المآذنْ
مردّداً بالصّدى المعطّرْ
تسبيحةَ السّالمِ المطهّرْ
اللهُ أكبرْ ... ! اللهُ أكبرْ ... !

شكا نيتشه ودستويوفسكي وتولستوي وغيرهم حضارة الآلة لأنها لا تفسح المجال لنزعات الانسان الروحية. فليس ثمة مجال للتصوف والتطلع وادراك الجمال. ولم ينشأ في ذلك العهد امير من امراء الكلام يضاهي في مقامه كلارك مكسول ولورد كلفن اذا اكتفينا بذكر اثنين من امراء العلم فقط.

وظن رجال الفن انهم اصبحوا يجمعون بين الفن والعلم اذ احتذوا يمجدون النظام الميكانيكي وفضائله ولكن هذا النظام الذي يمجدونه قد نبذه العلم. فالفن مادي الآن والعلم متخذ أشكل الطبيعيات الرياضية يبدو أكثر تعلقاً بالنزعة الكمالية الروحية لدى كل اكتشاف جديد في الكهرب والاشعاع والهندسة غير الاقليدسية

كان شعراء الاغريق واللاتين يعلمون بعلوم عصرهم فما يحتاج اليه العصر هو لقريطوس آخر يشرب من معين اينشتين وبلانك وشرودنجر وهيزنبرج وأدنغتن ليجلو لنا الجمال الكائن وراء الكهرب والفضاء المحدب

ولكن اينشتين لا يذمهم! على ان الشعراء يعلمون بأن الارض تدور حول الشمس من غير ان يلزموا باقامة البرهان على ذلك. ففي استطاعتهم ان يعلموا بنتائج النسبية وبناء المادة الكهربي من غير ان يغامروا بعقولهم في تيه المعادلات الرياضية. ليناجوا النجوم والغيوم كما كانوا يفعلون من قبل ولكن ليكن دليلهم في هذه المناجاة الصور الكونية الجديدة التي ابدعها العلم الحديث. فانهم يجدون حينئذ ان العلم ينطوي على عجائب لا تنتهي

العلم في حاجة الى شاعر

عجائب! نعم يجد الشاعر عجائب لا تنتهي في مذهب بلانك الكمي الذي يقول بأن الطاقة أشبه شيء برصاصات تنطلق انطلاقاً متتابعاً لا امواجاً تتلاحق. فمقادير النور والكهربات تتطاير هنا وهناك من غير ان يحدوها احترام لنواميس العلة والمعلول وتتصرف كأن لها ارادة حرة. هل مصباح علاء الدين وجنيات اندرسن أكثر غرابة وأبعث على الدهشة من هؤلاء؟ فالذرة شيء يكاد يكون روحياً ومنها تنطلق اشعاعات. والكون ليس آلة تتصرف دائماً بموجب قوانين بينها والعلم نفسه يعترف بحاجته الى الشعر. فاليقين القديم بأن في طوقنا تعليل كل شيء بواسطة الاثير والذرة التي كانت تحسب اصغر أجزاء المادة قد مضى عهده وحل محله في عقول العلماء دعة صحيحة واستعداد لافساح الميدان لرجل الفن لادراك الحقيقة وتفسيرها. فقد يكون أدق احساساً بما في بحر المجهول الكائن وراء النسبية والكهرب من العالم الطبيعي الرياضي. قد يستطيع العلم ان يبين لك كيف تكون الكون ولكنه لا يستطيع ان يقول لماذا؟ اما وقد سار العالم بالاسلوب العلمي الى أقصى مداه فهو مستعد ان يفسح المجال للشاعر! فلمحات الوحي النادرة وكوامن الصدور التي تتحرك لدى رؤية غروب او فجر رائع، وايمان المستشهدين وسيرهم الى الموت بثغر باسم ورأس مرفوع، وتصورات المتصوفين الدينيين - كل اولئك ينال معنى جديداً لدى محاولتنا الكشف عن سر الكون!